الكناية في القرآن وحفظ اللسان من الألفاظ المستقبحة

لقد امتن الله تعالى في كتابه العزيز على عباده بنعمة اللسان ليشكروه على ذلك، فقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ (9)﴾[سورة البلد]، وقال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنْسَانَ(3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4)﴾ [سورة الرحمن] ، ومن أوجه ما أمر به الله تعالى في القرآن من الفضائل والآداب لشكر النعمة حفظ اللسان عن كل مستقبح من الأقوال، والعناية بأدب الحديث عند التخاطب والتواصل مع الناس، وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة تؤكد هذا الأمر وترشد إليه، منها قول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[البقرة: 83]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 53].

ولم ينته ويقف الأمر على الإرشاد إلى حسن الكلام والتقيد به فحسب، بل أوصى الله تعالى في كتابه العزيز بانتقاء أجود الكلام وأحسنه، وملاطفة الناس في مواضع معينة، والتعبير عن بعض الأشياء التي يُستحيي من ذكرها بكلام فيه حياء وحشمة ووقار من خلال تطبيق ذلك في العديد من المواقف الواردة في كثير من الآيات الكريمة، ومن تجليات ذلك استعمال القرآن الكريم للكناية والتلميح والتعريض دون التصريح، فقد ذكر البلاغيون في هذا السياق أن الكناية[1] قد تأتي على ثلاثة أوجه، فهي: إما للتعمية والتغطية، كقول النابغة الجعدي:

أَكِنِي بِغَيرِ اِسمِها وَقَد عَلِمَ
اللَهُ خَفِيّاتِ كُلِّ مُكتَتَمِ

وإما للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره: كقوله تعالى في قصة سيدنا عيسى وأمه -عليهما السلام-: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [سورة المائدة: 75]، كناية عما لا بدّ لآكل الطعام منه.

وأما للتفخيم والتعظيم والتبجيل كقولهم:"أبو فلان" صيانة لاسمه عن الابتذال، ومن هذا الوجه اشتقت الكنية[2].

إذن؛ فالكناية من أغراضها أنها تأتي للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه، وهذا ما أكده أبو هلال العسكري حينما قرن الكناية بالتعريض، وكأنه اعتبرهما أمرا واحدا، ثم يعرفهما، بقوله:« الكناية والتعريض: وهو أن يكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرح، على حسب ما عملوا باللّحن والتّورية عن الشيء. كما فعل العنبرى إذ بعث إلى قومه بصرّة شوك وصرّة رمل وحنظلة، يريد: جاءتكم بنو حنظلة فى عدد كثير ككثرة الرمل والشوك.

وفى كتاب الله تعالى-عز وجل-: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة:6]، فالغائط كناية عن الحاجة، وملامسة النساء كناية عن الجماع. وقوله تعالى: وفرش مرفوعة كناية عن النساء.» [3].

ومما يؤكد استخدام وتوظيف القرآن الكريم أسلوب الكناية لأجل التعريض وتجنب القول الفاحش والقبيح وغير اللائق حديث عبد الله بن عباس الذي أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن عاصم عن بكر بن عبد الله المزني قال: قال: ابن عباس: (الدخول والتغشي والإفضاء والمباشرة والرفث واللمس هذا الجماع غير أن الله حَيِيٌّ كريم يكنى بما شاء عما شاء) [4].

ولذلك وردت آيات عديدة في مواقف ومواضع شتى من الكتاب العزيز لم يعبر عنها، وهي في الحقيقة كنايات عدل بها عن التصريح تنزيها عن اللفظ المستهجن، ومن الناس من يصرح بها، ويظهر فيها ما لا يجوز أن يظهر، لكن القرآن تعامل مع الأمر بقاعدة ليس كل شيء يقال. ومن تلك المواقف القرآنية التي تدلنا على ذلك ما ورد في قوله تعالى:﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [سورة البقرة:187].

والمراد بـ ﴿ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ هنا أنه كناية عن الجماع، وعدي به إلى غيره لتضمنه معنى الإفضاء، وسببها هنا أن يكون التصريح مما يستقبح ذكره.

وقوله تعالى:﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة: 223]. وهو كناية حيث شبه النساء بالحرث [5]، وفي ذلك تنزه حسب رأي كثير من أهل التفسير عن اللفظ المستهجن، فذلك تعبير عن الجماع لكن بألفاظ منتقاة، وهذه الكناية في الآية وصفها الإمام أبو حيان الأندلسي بأنها من بديع الكنايات في القرآن الكريم بقوله:«وهذه الكناية في النكاح من بديع كنايات القرآن، قالوا: وهو مثل قوله تعالى: ﴿يَأْكُلُ الطَّعامَ﴾ ومثل قوله: ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها﴾ [سورة الأحزاب: 27]، على قول من فسره بالنساء.» [6].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ ﴾ [البقرة:187]، وفي ذلك عدول عن التلفظ بلفظ المواقعة إلى لفظ غيره يؤدي معناه، وهو اللباس المتضمن معنى الستر [7].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً﴾[البقرة: 235].

والمراد بقوله تعالى:﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: 235] كناية عن الجماع. وقد فسر الوعد السر هنا بتفسيرات أخرى لا تبتعد عن المقصد والمبتغى من النهي القرآني، من ذلك بأن لا تراعي القول مع المعتدة، فلا تقل لها مثلا: إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري ونحو هذا[8].

وهذا الأمر لا يقتصر على المعتدة بل يتعداها إلى غيرها، فلا يجوز للمسلم أن يطلق كلامه مع المرأة، ويواعدها بالزواج ثم يخلف ذلك.

ومن الأمثلة على تجنب القرآن الكريم التصريح في بعض المواقف والانتقال إلى الكناية ما ذكرناه سابقا فيما يخص أوجه الكناية في اللغة العربية قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [سورة المائدة: 6]، فالغائط: المطمئن من الأرض، وكانوا يأتونه لحاجتهم ويستترون به عن الأماكن المرتفعة [9].

وهناك آيات عديدة في كتاب الله تعالى نهجت أسلوب الكناية للعدول عن اللفظ الصريح إلى لفظ آخر غير مستقبح أو مستهجن، وهذا كله تعليم وتربية للمؤمن على الأخلاق والآداب؛ لأجل اختيار الألفاظ وانتقاء الكلمات التي نعبر بها عن مثل هذه المواضيع في تخاطبنا وكلامنا مع الآخرين.

وهذا الأسلوب الذي نهجه القرآن الكريم أشار إليه كثير من العلماء ونبهوا عليه، وفي هذا المنحى يقول الدكتور عبد العزيز عتيق: «ولعل أسلوب الكناية من بين أساليب البيان هو الأسلوب الوحيد الذي يستطيع به المرء أن يتجنب التصريح بالألفاظ الخسيسة أو الكلام الحرام، ففي اللغات، وليس في اللغة العربية وحدها، ألفاظ وعبارات "غير لائقة"، ويرى في التصريح بها جفوة أو غلظة أو قبح أو سواء أدب أو ما هو من ذلك بسبيل.

وعدم اللياقة في النطق أو التصريح بهذه الألفاظ الخسيسة والعبارات المستهجنة التي تدخل في دائرة الكلام الحرام، كما يقول علماء الاجتماع قد يكون باعثه الاشمئزاز مما تولده في النفس من مشاعر وانفعالات غير سارة، وقد يكون باعثه الخوف من اللوم والنقد والتعنيف، والخوف يدفع المرء بالخروج عن آداب المجتمع الذي يعيش فيه.

لكل ذلك كانت الكناية هي الوسيلة الوحيدة التي تيسر للمرء أن يقول كل شيء، وأن يعبر بالرمز والإيحاء عن كل ما يجول بخاطره حراما كان أو حلالا، حسنا كان أو قبيحا، وهو غير محرج أو ملوم. وتلك مزية للكناية على غيرها من أساليب البيان»[10].

[1]-من التعاريف التي عرفت بها الكناية في الاصطلاح:"لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جوازه إرادة ذلك المعنى، أي المعنى الحقيقي للفظ الكناية".علم البيان، عبد العزيز عتيق، بيروت–لبنان، دار النهضة العربية، الطبعة: بدون، 1405هـ/ 1982م، ص203.

[2]-الكامل في اللغة والأدب، المبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفكر العربي، الطبعة: الثالثة، 1417 هـ/1997م، ج2، ص216-215 .

[3]- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العنصرية، 1419 هـ، ص368 .

[4]- المصنف، أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الهند، المجلس العلمي، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، 1403هـ، ح6، ص277.

[5]- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1423 هـ، ج3، ص153.

[6]-البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، الطبعة: 1420هـ، ج2، ص428.

[7]- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422هـ/ 2001م، ج3، ص233.

[8]- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى، 1419هـ، ج1، ص484.

[9]- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، مرجع سابق، ج3، ص153. [1]- علم البيان، عبد العزيز عتيق، بيروت–لبنان، دار النهضة العربية، الطبعة: بدون، 1405هـ/ 1982م، ص226.

[10]- علم البيان، عبد العزيز عتيق، بيروت–لبنان، دار النهضة العربية، الطبعة: بدون، 1405هـ/ 1982م، ص226.